

اللاتينية والعامية اللبنانية ، وقد كان هدف هذه الدعوة التي حمل لواءها التبشير اساسا لخدمة مخطط السيطرة الاستعمارية الثقافية انما يرمي الى تمزيق اللسان العربي في العالم الإسلامي كله وليس العربي وحده ، والقضاء على لغة القرآن كلية باحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى في كل قطر وبذلك ينفرط عقد الوحدة الجامعة التي كان قوامها هذا الكتاب المنزل والذي حفظ وحدة اللغة العربية طوال اربعة عشر قرنا .

ويؤكد الباحثون ان اهتمام الاجانب بالعامية « لم يكن من أجل البحث العلمي - ولا من أجل حاجتهم الى معرفة لهجات البلاد العربية التي تقتضي مصالحهم ان يعيشوا فيها - وتعاملوا مع اهلها وانما من أجل القضاء على العربية الفصحى واحلال العامية محلها (1) »

ومن الواضح ان هؤلاء الاجانب من المبشرين هم الذين وضعوا في مؤلفاتهم هذه الخطة الكاملة التي ما يزال يستقي منها كل دهاء الشعوبية والتفريب واتباع المستشرقين والمبشرين من ادعاءات حول ما يصنفونه بصعوبة اللغة العربية ، وصعوبة الحروف العربية ، واتهام اللغة العربية بانها لا تستطيع مجاراة العلوم الحديثة والفوارق الواضحة بين لغة الحديث ولغة الكتابة .

ولقد يدهش بعض السطاء لاهتمام الاستعمار والنفوذ الاجنبي باللغة العربية بغية القضاء عليها ، ولو علموا مكان اللغة العربية من الاسلام والثقافة وكيان الامم لما دهشوا ، فاللغة هي روح الامة ومزاجها ، وهي ينبوع ما عند الامة من المزاج الخلقى والشعور النفسى .

فلا تفكر الامة الا بلفتها ، والفرق بين الفكر وبين اللغة دقيق وخطير ، ولذلك فان القضاء على اللغة انما يراد به القضاء على روح الامة وافساده .

وفى هذا يقول المازني :

« ان الانسان لا يستطيع ان يفكر الا بالانفاظ فهي وحدها اداة التفكير فلا سبيل اليه بدونها ومن المستحيل ان تمثل معنى مجردا من الفاظ معينة ، ولكل

(1) كتاب تاريخ الدعوة الى العامية

لغة اساليبها وطرائفها فاساليب التفكير وطريقة التصور خاضعة للاساليب التي يتالف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة ومن هنا يتفق وينشابه ابناء كل لغة ويختلفون عن ابناء كل لغة اخرى ، وهذا هو الفرق بين الانجليزي والفرنسي ، وما بين الانجليزي والهندي .»

وتمتاز اللغة العربية في هذا المجال عن اللغات الاخرى بان لها « كتابا » هو رسالة السماء الى المسلمين ، ومن هنا فهي تترايط بمد الجماعة العربية التي تتكلمها بجماعة اخرى تريد خمسة اضعاف من المسلمين الذين يجدون في هذا الكتاب لغة دينهم ولغة ثقافتهم ، ومن هنا فقد اصبح للغة العربية بهذا الوضع مكان فريد وخطير كان على الاستعمار ان يواجهه بحزم فحيث يذهب الاسلام تذهب اللغة العربية ، ومن هنا فقد عمد الاستعمار الى تجميد اللغة العربية في مختلف بلاد العالم الاسلامي التي سيطر عليها واعان لغته الاجنبية على السيطرة ، كما خلق من اللغات المحلية قوى يركز عليها لمحاربة اللغة العربية .

ومن هنا وفى سبيل اقصاء القراءن عن ثقافة الامم المسلمة سيطر النفوذ الاجنبي على وسائل التعليم وادارها بلفته التي اصبحت هي اللغة الاولى في كل قطر محتل ، واجرى تجميد المعاهد الاسلامية الخالصة كالازهر والقرويين وقد اشار المبشر الاكبر «زويمر» الى خطورة اللغة العربية حين قال :

« ان اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف اجناسهم ولفاتهم» وكان هذا اشارة الى ضرورة العمل على هدم اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القراءن .

وهذا هو المعنى الذي تلفت اليه المرحوم مصطفى صادق الرافعي في حملته على لطفى السيد ودعاة التسوية بين العامية والفصحى ، فقد كان الرافعي يعرف ان الهدف من ذلك هو احلال « لغة وسطى » قريبة من العامية لتكون لغة الكتابة وبذلك يعتمد المسلمون عن لغة القراءن البليغة وبذلك يصبحون عاجزين عن فهم القراءن او التعامل معه وهذا ما يهدف اليه الاستعمار .

انه يؤدي الى حصر العلم في طبقة ضيقة جدا من الامة ويقتل الاساتذة الكفاء ويلاشي القدرة العلمية والفنية التي بلغتها البلاد بما يميز هذه اللغة شيئا فشيئا .

ونصح المستر بلنت للمصريين والعرب بان يحافظوا على لغتهم ودينهم، فقال اذا اراد المصريون ان ينالوا استقلالهم ويحرروا وطنهم فعليهم الاحتفاظ بما احتفظت به كل امة مهضومة ، وهو « الدين واللغة » فان الامة التي تقبل لغة الفاتح تشكل على نفسها اللد والطاعة العمياء والامة التي تقبل دين من اقتصب بلادها تخون شرفها الوطني

ولعل اخطر ما تحمله خطة الفرو الاجنبي بالنسبة للغة العربية هو ما حاوله « ويلكوكس » من تاصيل للعامية والادعاء بانها لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية وانها جاءت من لغة اخرى ماتت هي اللغة البونية ، فقد نشر رسالة عام 1926 بعنوان « سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية » : زعم فيها ان اللغة التي يتعلمها الناس من حلب الى مراكش بما في ذلك مالطة هي اللغة الكنعانية او الفينيقية او البونية ، كما زعم ان اللغة البونية التي هي اساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى فقد دخلت مصر قبل ان تدخلها الفصحى بالف سنة وانها انحدرت اليها من الهكسوس (1) .

وهذه محاولة جريئة وماكرة ومبطلة للقول بان اللهجة العامية هي لغة قائمة بذاتها وانها كانت موجودة قبل الاسلام والهدف من هذا هو تاصيل الدعوة الى العامية في محاولة لاحلالها لغة للكتابة حيث يردد هؤلاء جميعا العلاقة بين العامية والعربية ويقارنوها بالعلاقة بين اللاتينية واللغات الاوربية الحديثة وهي مقارنة باطله ومضللة وقد رددنا على هذه الاتهامات في كتابنا « اللغات العربية بين حمايتها وخصومها » .

والمعروف ان ولكوكس كان من اكبر دعاة العامية وانه ترجم الانجيل بالعامية - كما ترجم بعض قطع

ومن اخطر دعوات التبشير والتفريب تلك الدعوى التي تحدث كثيرا عن الادب الشعبي والفلكلور ولا يفهم الاحاح في هذه الدعوة الاجنبية الا حين نرى حيرة سبتيا وفولرس وولور وويلكوكس في البحث عن ثقافة شعبية يريدون اسنادها الى اللهجات العامية وبذلك يستطيعون ان يقولوا انها « لغة » وشرط اللغة ان تكون لها ثقافة ومن هنا عمدوا جميعا الى جمع المواويل والاجال والحكم العامية .

وقد جرت هذه الدعوة في الوقت الذي كان « دنلوب » يستولي فيه على مقاليد التعليم في مصر ويضع النظام الذي يريد به تغليب العامية والانجليزية واختصر دراسة العربية وكل ما يتصل بها بعد الاحتلال .

ثم جاء « سلدن ولمور » بعد الاحتلال فاضاف الى دعوة من سبقوه الى العامية - الممثل على كتابة العامية بالحروف اللاتينية .

وازرت مجلة المتكطف وبعض الكتاب من خريجي الارساليات والمعاهد الاجنبية هذه الدعوة ورددوا آراء هؤلاء التي تلخص في اثاره الشبهات عن الخلاف بين لغة الكلام ولغة الكتابة وضرورة احلال اللغة الاجنبية في التعليم نتيجة الارتباط بالدول الاوربية .

وكان سعد زغلول « اول ناظر للمصارف العمومية هو اكبر دعاة بقاء اللغة الانجليزية لغة هامة للتعليم ، وقد استطاع الاستعمار والنفوذ الاجنبي به ان ينقل السهام الموجهة الى كرومر ودنلوب الى قلب وزير عربي هو الذي تصدى ليحمل لواء الدفاع عن بقاء اللغة الانجليزية كأساس للتعليم وتجميد اللغة العربية .

وعارض هذا الاساس كبار قادة الصحالة والسياسة في هذه الفترة وفي مقدمتهم : مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف واثاروا الى مدى الخطر الناتج من هذا الاجراء . وكيف

(1) لزيادة التفاصيل راجع كتابنا (اللغة العربية بين حمايتها وخصومها) وكتاب تاريخ الدعوة الى العامية .

لشكبير وقد وجدت هذه الترجمات ازدرأه او
احتقارا كبيرين ولم يتقبلها احد .

كما اجري هؤلاء الاربعة (سبيتا ، فولرس ،
ولور ، ويلكوكس) محاولات متعددة للدفاع من
العامية وذلك بادعاء القول بان لها قواعد محددة .

وكان الهدف من هذه الحملات المتوالية التي
بدات (1880 - واستمرت الى 1926) واحدا هو ليس
فقط كما يقول بعض الباحثين الذين لم ينظروا الى
الامور نظرة عميقة « فصل المسلمين والمغرب من
ماضيهم وتفتيت وحدتهم بل هو اكبر من ذلك واطغر
وهو السر المكتوم في حنايا الصدور : القضاء على لغة
القرآن واحلال لهجات تصبح لغات فينطوي كتاب
الاسلام الاكبر ويفقد خاصيته الكبرى وهي وحدة
الفكر بين المسلمين .

ومن خلال هذه المخططات التي رسمها التبشير
والاستشراق ، انبثقت دعوات لطفي السيد وسلامة
موسى وعبد العزيز فهمي في مصر وغيرهم في لبنان
(الملووف والخوري ومارون حصن) - وما تزال
كتابات دعاء العامية في مصر والعالم العربي الى اليوم

تستمد مصادرها ودفاعها وهجومها على الفصحى من
هذه الكتابات التي وسدت لهم مجال الدعوة الباطلة .

وكذلك فعل التبشير والاستشراق في كل
جوانب الفكر الاسلامي هذا الفعل ، فاعد ركيوة
اساسية باقلام رجاله وترك لتابعيه وخداميه
الانتفاع بها وترديدها ولقد قرأت في الاقوام الاخيرة
رسالة القيت في احدي المؤتمرات الغربية من العامية،
لا تكاد تخرج في مضمونها عن كلام ويلمور وويلكوكس
وان كانت بحروف عربية وبتوقيع اسم عربي .

ولم تمر هذه الحملات على اللغة العربية دون
معارضة وتفنيد بل لقد واجهت هذه الحملات ردود
فعل قوية وكتب الكثيرون يفندون آراء لطفي السيد
ورد عليه مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمان
البرقوقي ، وفند الدكتور احمد الحوقي آراء سلامة
موسى وفند عبد الوهاب عزام وكثيرون آراء عبد
العزيز فهمي .

وما يزال يردد هذه الدعوى كثيرون في هذه
الجيل من امثال ميخائيل نعيمة وليويس عوض
وسعيد عقل وسوف لا يكون رجاؤهم باكثر من رجاء
من سبقوهم .

صدرت للاستاذ انور الجندي الموسوعة الاسلامية العربية في عدة مجلدات
نخص بالذكر منها بحوثا حول الفكر العربي في معركة التفريب والتبعية الثقافية
ومعالم الفكر العربي المعاصر والفكر الاسلامي والثقافة العربية ، ولسيادته ايضا
« معالم الادب العربي المعاصر » (1871 - 1939) .

البحر العربي الجديد يجب أن يكون موحداً ثقافياً: - معرفة حقيقة جواهر الدين - مواكبة الحضارة الحداثة الأستاذ محمد سركس ولبناش

مستقبلهم السياسي ومصالحهم العامة بالعالم الغربي .

ان هذا التيار الثقافي جرف عددا كبيرا من المثقفين المسلمين وبصورة خاصة اولئك الذين تربطهم بالاسلام لوراثة اكثر من الايمان، او الذين يمارسون الاسلام بالمصيبة اكثر مما يمارسونه بالعبادة .

وكما هو طبيعي ، فقد تركت الثقافة الغربية آثارها العميقة على :

(1) تفكير هؤلاء .

(2) وعلى طريقة تفكيرهم .

واذا كان موضوع الفكر في حد ذاته ليس هو موضوعنا ، الآن فان طريقة التفكير واللغة هي اداها ووسيلته التعبيرية تكشف لنا عن الوقائع التالية :

1 - هناك دعوة ملحة لاستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني كما جرى في تركيا على يد (اتاتورك) ويتزعم هذه الدعوة الاديب اللبناني (سميد عقل) وقد ألف بالفعل كتابا اسمه (بارا) بهذه (اللغة الجديدة) .

انني من الذين يذهبون مذهب الربط بين الاسلام والعربية . وحسبي برهنة على ذلك ان القران الكريم قد انزل باللسان العربي ، وان ملايين المسلمين - مربا وعجبا - مضطرون الى ان يرتلوه ويتلوه به . ثم انني لاحظت ان مستوى العربية في البيئات الاسلامية ارتقى منه في المجتمعات غير الاسلامية . فانتشار اللغة العربية - في اعتقادي - منوط بانتشار الاسلام . ونحن نعلم انه لما خرجت الدعوة من شبه جزيرة العرب خرجت العربية من تلك البيئة الجغرافية المحدودة ، وانطلقت اني انطلق الاسلام . بل لاحظت ان العربية موقرة ، مبهجة في اوساط المتدينين ، اي حيث يقوى الوازع الديني ويشتد .

اما اليوم فان الثقافة الرائدة في لبنان هي الثقافة الاجنبية التي تحمل لواء نشرها وتعميمها البعثات التبشيرية المسيحية الاجنبية وبعض المؤسسات الاجنبية والمحلية الخاصة .

ثم ان كون نصف سكان لبنان على الاقل من غير المسلمين ، وحرصهم على اظهار لونها وكيانهم الذاتي وسط مجموعة من الشعوب الاسلامية التي تحيط بهم في منطقة الشرق الاوسط ادى الى اندفاع هذه الفئة من اللبنانيين نحو الثقافة الغربية بصورة عامة لارتياد

2 - وهناك أيضا دعوة لاستبدال اللغة العربية الفصحى باللغة المحلية المحكية . وقد نشرت بالفعل عدة مقالات وابحاث وصدرت كتب مختلفة « بهذه اللغة » ايضا .

3 - وهناك كذلك دعوة تلقى رواجاً واسعاً في اوساط المثقفين اللبنانيين للخروج من دائرة التعبير اللغوي التقليدي الرصين ، الى دائرة اقل التزاماً بمبادئ اصول اللغة ، وذلك على غرار ما يجري في الدول الاوروبية حديثاً ، ولعل ما بات يعرف الآن بالشعر الحديث هو واحد من نتائج هذه الدعوة .

على ضوء هذه المعطيات الاولية قد يكون من المفيد ان نعود قليلاً الى الوراء ، الى فترة الحكم العثماني في المنطقة العربية ، فلقد كان دين الدولة الاسلام ، دستوراً وممارسة ، وكانت العناصر غير الاسلامية خاصة في لبنان ، تحمل لواء اللغة العربية في مختلف اقطار المنطقة ولاسيما في مصر والعراق . اذ انه في ذلك الوقت ، لم تكن « شخصية » تلك العناصر تتمتع بما تتمتع به الآن من استقلال ذاتي من بقية مجموعة الشعوب العربية .

اما في وقتنا الحاضر فلا يقتصر ما هو كائن على عكس ما كان ، بل ان شعارات الثورة والتقدمية تم بعض الدول العربية حتى تبدو هذه الدول ، وكأنها تحللت ، او على الاقل تحاول ان تحلّل من الاربطلة التي تشدها الى الاسلام كدين للعبادة وكمنهج في الحياة .

وإذا أخذنا لبنان الذي كان منارة الثقافة العربية ، بالتالي منارة اللغة العربية في العهد العثماني ، فاننا نجد الآن يتجه بعمق نحو الثقافة الغربية شكلاً ومحتوى ، نتيجة التحولات المشار اليها في صميم تكوينه المجتمعي . فانتاج دور النشر اللبنانية هو بالفعل انتاج غزير جداً ، غير اننا بعد التعمق في درسه نجد ان اكثره الساحقة هي عبارة عن مترجمات او مقتبسات من الادب او الفكر الغربي ، ونجد ايضا ان الانتاج العربي الصميم غالباً ما يقتصر على اعادة طبع مؤلفات قديمة او تلخيص تلك المؤلفات . واما الانتاج الحديث فهو في اكثره منطلق فكرياً من معطيات لا تمت الى العربية الا بصلة كون الحواجز مرفوعة بين منابع الثقافة العالمية في عصر صغرت فيه الدنيا ولم يعد يحسب للمسافات حساب .

وهناك ايضا امر آخر لا بد من الوقوف عنده وهو ان نوع المادة المكتوبة في الثلث الاخير من القرن العشرين تفرض الى حد معين نوع اللغة . وبكلام آخر ، لقد تفتحت امام العالم آفاق علمية واسعة من المعرفة ، واستحدثت كلمات وتعابير لم تكن موجودة في اللغات من قبل ، ولما كان موكب الحضارة العربية في هذا الوقت مقصراً عن اللحاق بالركب العالمي ، فان اللغة العربية تبدو بالتالي مقصورة هي الاخرى . ليس المهم هنا القاء المسؤولية على عاتق اللغة او على عاتق اصحاب اللغة انما المهم هو اقرار الحقيقة التالية :

ان انتشار او انحسار اللغة العربية ليس مرتبطاً دائماً بقوة او بضعف الاسلام ، انما هو انعكاس لمدي انفتاح او انغلاق الفكر العربي ولمدي تقصيره او مساهمته في عالم الكشوف العلمية والتحولت السريعة في معرفة حقائق الكون المجبولة .

ومهما بدل العربون من جهود فانهم يتقون عاجزين من ازالة هذه الوصمة عن جبين اللغة العربية رغم ان هذه اللغة مهيأة في تكوينها الطبيعي لاستخراج كل ما يحتاجه العلم الحديث من كلمات وتعابير جديدة .

ان المجتمع العربي كما يبدو اكثر وضوحاً في لبنان منه في أي مكان آخر يقوم على اساس ثقافتين اثنتين ، الاولى : ثقافة دينية تجهل اصول العلم والتقنية الحديثتين ، والثانية : ثقافة علمية مجردة ، جاحدة او جاهلة لحقيقة الاسلام . ومن المؤسف ان يكون الاحتكاك بين هاتين الثقافتين ، على حساب اللغة العربية من حيث ان الاولى المتهمة بالجهل والتأخر والعجز عن مواكبة تطور العصر تستعمل اللغة العربية اداتها التعبيرية ، فتتفر الثانية منها وتزيد في اندفاعها نحو اللغات الاجنبية التي تعتبرها لسان الحضارة . ولذلك فكثيراً ما نسمع مهندسا او طبيباً او حتى محامياً يدمي انه يفكر باللغة الاجنبية ، افضل واسرع مما لو يفكر باللغة العربية . من كل ذلك ، اريد ان اسجل الحقيقة التالية ، وهي ان هناك اسباباً نفسية واخرى ثقافية حديثة الى جانب الاسباب الدينية ، تلعب دوراً أساسياً في تفرير قوة او ضعف اللغة العربية في المجتمعات الاسلامية . ولعل ذلك ما يفسر الفشل في تعميم اللغة العربية حتى الآن في باكستان واندونيسيا وماليزيا او حتى

21

2 - ويدرس مختلف أنواع العلوم باللغة العربية بعد أن يكون قد تم تعريب المصطلحات والمفردات المستحدثة . وبذلك ينبثق من المجتمعات الإسلامية جيل موحد الثقافة يجمع بين معرفة حليقة جوهر الدين الإسلامي من جهة ، ويواكب سير الحضارة المصرية من جهة ثانية بلغة واحدة قادرة على أن تلبي كل حاجيات التطور ومتطلباته .

في بعض الاقطار الافريقية حيث كل السكان او اكثرهم الساحقة من المسلمين الذين يتمسكون بلغة القرءان الكريم كاحدى الروابط الدينية المقدسة التي لا انفصام لها .

اما كيف يمكن التغلب على هذا الواقع فربما تكون هناك وسائل عديدة اهمها في نظري يقوم على تنشئة جيل جديد يدرس :

1 - الثقافة العينية جنباً الى جنب مع الثقافة العلمية الحديثة .